محمد جواد مغنية

فلسفة الأخلاق

في الإسلام

www.atharebartar.com

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء وآله الأتقياء .

حلاوة العلم

كل من ذاق حلاوة العلم يصبر على المشاق في سبيله ، ويسهر الليالي الطوال في تحصيله ، لأن العلم لا يُلتقط بسرعة وعلى عجل ، ومن نال منه شيئاً اهتز من أعماقه غبطة وفرحاً ، وتصور تلقائياً وعاطفياً أنه هو الذي أوجد وخلق علم ما لم يكن يعلم . وما هذا بعجيب وغريب ، فان الانسان يحقق ذاته وشخصيته بالعلم ، وبه يكون شيئاً مذكوراً .

والعلم شكل من أشكال العمل بشرط واحد ، وهو الاستمرار والمتابعة في البحث والمطالعة حيث يزداد الباحث الدؤوب وعياً وعلماً وإلاّ ذبل ما كان بالإهمال والنسيان ، وترك صاحبه يتيه في الظلمات .

www.atharebartar.com

كتبت وكتبت

طلبت العلم سنة ١٩٢٥ م . ، وما زلت أجدّ في طلبه حتى اليوم [١] مطالعة وتدريساً ومذاكرة وتسجيلاً ، وطبعت وأذعت أكثر مما كتبت .. ولدي الآن ثلاثة كتب مرشحة للطبع ، منها هذا الكتاب [٢] وله قصة ، أعرضها بايجاز بعد سطور .

كتبت أول ما كتبت مؤلفاً محلياً وإقليمياً (الوضع الحاضر في جبل عامل) تحدثت فيه عن بؤس هذا الجبل وحرمانه ، وملأت بكلامي آذان الزعماء والعلماء من سكانه ، عسى أن يشعروا بالمسئولية عنه ، وكان أول صيحة من أهل العلم الديني في هذا العصر ضد الإهمال والخطر الرابض على شيعة لبنان . وتوالت صيحاتي لهذه الغاية في الصحف وعلى المنابر .

وبعد الوضع الحاضر كتبت في الفقه وأصوله ، وفي الدفاع عن المذهب والعقيدة ، وفي الفلسفة والتصوف والفضائل ، وفي التفسير ، وشرحت نهج البلاغة ، وأيضاً كتبت عن الوهابية وعن علماء النجف الأشرف .. الى « من هنا وهناك . ومن ذا وذاك » الى ما شاء ربك ، إنه فعال لما يريد .

الانسان مخير ظاهراً مسير واقعاً

كل انسان يلتحم ببيئته وظروفه الاجتماعية ، شاء أم أبى إلا أن يهيم على وجهه .. هذا إن توافرت لديه أسباب الفرار .. فكيف

---

(١) نحن الآن في سنة ١٩٧٧ .

(٢) والثاني تجارب محمد جواد مغنيه بقلمه والثالث صفحات لوقت الفراغ .

www.atharebartar.com

يكون الانسان حراً ، وهذي هي حاله ؟ وصدق أرسطو حيث يقول : « الانسان مخير ظاهراً ، مسير واقعاً » .. أبداً ما مر بخاطري في أية لحظة أن أكتب في الأخلاق حتى نزلت النازلة على لبنان ، وجاءت الطامة الكبرى في شهر نيسان سنة ١٩٧٥ وما تزال تهدّم وتدمدم .. وعشت في جحيمها وسمومها ستة أشهر ، ونشرت في جريدة السفير أكثر من نداء ، ولكن من يسمع وقوى الشر والبغي تملأ الأجواء .

وأخيراً ، ما وجدت سبيلاً الا الفرار ، فارتحلت الى النجف الأشرف ، واذا بكتاب مجيد ومفيد لولا الغموض والتعقيد ، فطُلب مني أن أجدد صياغته ، وأوضح عبارته ، فاستخرت الله في كتابه الأعظم عند الرأس الشريف في الحائر الحسيني ، فأمر ، جلت حكمته . فترجمت الكتاب الى الفصحى ، واستفدت كثيراً حيث كان من أقوى الدوافع لي على مراجعة العبادات بالكامل — ما عدا الحج — في كتاب الجواهر والحدائق ومفتاح الكرامة ، وذلك ما حملني أن أعكف عليه بكلي مواصلاً المطالعة والكتابة ليل نهار طوال أربعة أشهر ، وكنت أصل أحياناً إلى طريق مسدود لأن الصياغة الأولى ليست غامضة وحسب ، بل قاصرة الدلالة على المعنى المقصود .

بين الكاتب والقارىء

سؤال كان وما يزال يوجه اليّ من الهواة ، وهو كيف يصير الانسان كاتباً ؟ وكان جوابي وما زال ، أن لا يتعجل الكاتب في تسجيل كل ما يمر بخاطره ، ويراه حسناً غير عابىء ولا مكترث بالقاريء والا قابله بالمثل .. وقديماً قال الشاعر العربي : « وكما تراني

www.atharebartar.com

يا جميل أراكا » . والمعيار الحاسم الصارم لنجاح الكاتب أن يكون صادقاً في قوله ، مخلصاً في قصده ، واضحاً في سره وعلنه ، عالماً بالموضوع الذي تصدى له .

أما الايجاز فنقطة ايجابية وأساسية .. وحدث أكثر من مرة أني حذفت العديد من الصفحات حين طبع الكتاب لا لشيء الا لهاجس من الخوف أن يمل القارىء فيترك الكتاب الى غير رجعة ، ولو خيرت أن يكون كتابي ٢٠٠ صفحة وله ألف قارىء – مثلاً – أو يكون ٣٠٠ صفحة ويقرأه ٩٩٠ لآثرت الحجم الأصغر . وكتابي هذا على غرار ما ألفت من قبل لا تعقيد فيه ولا تطويل .

قصة هذا الكتاب

تركت النجف الى ايران بقصد الزيارة ، وكان قد بقي من السنة الدراسية ثلاثة أشهر فرغب اليّ سماحة المرجع الكبير آية الله شريعتمداري أن أدرّس في دار التبليغ ، فتوقفت وترددت لأن التدريس بالنسبة الى علة القلب والتقدم في السن مسئولية شاقة وصعبة ، بل وجادة أيضاً حيث أهتم كثيراً في التفهيم وطريقته ، والشرط الأساسي عندي لكفاءة الأستاذ قدرته على تيسير وتسهيل أساليب البحث والدرس .. ولما عاودني السيد دام ظله مؤكداً استخرت في الكتاب العزيز ، واذا بهذه الآية : « ونقرّ في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمّى – ٥ الحج » فشرعت بتدريس الإرث على المذاهب الخمسة وعلم الأخلاق ، وكان هذا الكتاب ثمرة لدرس هذا العلم .

ولا خلاف في شيء من مبادىء الأخلاق وقيم الخير والشر بين سابق ولاحق من علماء المسلمين على العكس من المسائل الفقهية ،

www.atharebartar.com

وانما الاختلاف في طريقة العرض والتحليل والتدليل تبعاً لاختلاف الأيام والاتجاهات ، وفي نقاش الفلسفات الحديثة التي تنصب العداء الصارخ للدين والأخلاق .. ويجد القارىء عرضاً موجزاً للوجودية والبرجماتية والوضعية المنطقية ورأي الماركسيين في الطبيعة البشرية ، ولما يمكن أن يقال حولها باعتبار أن هذه الفلسفات أو النزعات هي الأكثر شيوعاً والأقوى تأثيراً من غيرها .

وأخيراً ، أشير الى كتاب دستور الأخلاق في القرآن للدكتور الشيخ محمد عبدالله دراز الذي ترجمه الأستاذ عبد الصبور شاهين من الفرنسية الى عربية القرون الخالية ! .. ولا أدري هل يتعمد هذا الكاتب الغموض والتعقيد أو هو معقد بالذات والطبع ! .

وفي شتى الأحوال فقد صبرت على هذا الكتاب المطلسم ، وانتفعت به ، وسرت على تخطيطه في الأخلاق النظرية والحديث عن عناصر الخير الخمسة : الإلزام والمسئولية والجزاء والنية والجهد . أما الأخلاق العملية فما قيدت الحديث عنها بتخطيط جديد أو قديم لأنها مجموعة من القيم الانسانية لا يخرج عن حدودها الا شاذ عن طبيعة الانسان وشريعته .. وأيّ انسان لا يريد أن يحيا ويعيش حياة الأمن والاستقرار والتحرر من الظلم والاستغلال ، وأن تكون علاقته مع كل الناس علاقة الحب والصفاء والإخلاص والوفاء ؟ .

وأكتفي بهذه الإشارة إلى قصة الكتاب تاركاً الحديث عن جميع بحوثه ومحتوياته ومزاياه وصفاته ، اليه وحده ، فانه أصدق في التعبير عن نفسه من كل واصف وناطق .. هذا ، الى أن علاقة المقدمة بالكتاب لا تحدد وتنحصر بالحديث عنه من كل جهاته أو بواحدة منها على سبيل التعيين ، بل يترك ذلك لميول المؤلف ومشاعره وظروفه وأحواله ، والأهم من كل شيء أن يستأثر الكتاب بالقارىء ، ويشده

www.atharebartar.com

اليه ، وهو يتجه به الى حياة أفضل وأكمل .

وفي سائر الأحوال فان العلم ، أيّ علم كان ، ما هو بخليق وجدير بهذا الاسم الا أن يلتحم مع الحياة ويؤثر فيها أثره ، فيحل مشكلة من مشكلاتها ، ويسهل عسيراً من أمرها . وأكثر العلوم التصاقاً بهذا المبدأ هو علم الأخلاق لأن موضوعه ينحصر في سلوك الانسان بحدود الفضيلة وقيودها ما استطاع الى ذلك سبيلاً . وحاولت أن أعرض في هذا الكتاب المعيار السليم لهذا السلوك بكل ما أملك من جهد ، ولا أدري : هل بلغت ما أريد ؟ أدع الحكم لي أم عليّ للقراء .

والله سبحانه المسئول أن يهب لنا من لدنه رحمة وفرجاً ومغفرة ومخرجاً بالنبي وآله الأبرار . عليه وعليهم أفضل الصلوات .

www.atharebartar.com

حول الأخلاق

لمجرد التمهيد

كل انسان يستشعر في ظروف معينة نداء الضمير الحي والفطرة النقية حتى ولو كان أشد الناس إلحاداً وأكثرهم جهلاً ، ومن الذي لا تتحرك انسانيته وتثور عاطفته اذا رأى طفلة تلتهمها النيران ، وهي تصرخ وتستغيث ؟ وكل فعل يصدر عن هذا الاحساس الانساني النبيل وينبعث من القلب لا من خارجه فهو من الأخلاق في الصميم ، فالشرط الأساسي في الفعل الخلقي أن يصدر عن باعث خلقي صرف أو يصدر عن باعث ديني بحت ، فان طاعة الدين لله وللدين تماماً كفعل الخير لوجه الخير .

واذا تحركت العاطفة واتجهت نحو الخير ومحاسن الأخلاق في بعض المواقف فانها تثور وتتحرك نحو الشر ومساوىء الأخلاق في كثير من المواقف كالذي ينساق مع حسده وحقده وغضبه ومآربه بلا روية وتفكير .

وفي يقيني وعقيدتي أنه لا خلق أسوأ وأضرّ من خلق الذين

www.atharebartar.com

يرفعون شعارات الخير وهم أعدى أعدائه ! . ينادون بالحرية ويبطشون بالأحرار ، ويتبجحون بالعدالة ، ويقتلونها غيلة وغدراً ، ويتباكون على الإلفة والوحدة وهم الذين فرقوا ومزقوا الصفوف : « يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون . في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون — ١٠ البقرة » .

والى مزيد من التوضيح في الصفحات الآتية .

موضوع علم الأخلاق

موضوع الأخلاق : سلوك الانسان وأفعاله الصادرة عنه بارادة مباشرة أو بالواسطة ، ومرادنا بالواسطة هنا أن علم الأخلاق يدين المخطىء اذا قصر وأهمل الاحتياط والتحفظ . طبعاً مع قدرته عليه حيث لا تقصير مع العجز .

تعريفه

وعلم الأخلاق مجموعة من المبادىء المعيارية التي ينبغي أن يجري السلوك البشري على مقتضاها ، والياء في المعيارية [1] نسبة إلى المعيار الذي يقاس به غيره (أي أن مبادىء الأخلاق ترسم طريق السلوك الحميد وتحدد أهدافه وبواعثه) .

---

(١) قالوا : العلوم المعيارة ثلاثة : الاخلاق وتبحث عن قيمة الخير ، والجمال ويبحث عن قيمة الجميل ، والمنطق ويبحث في قيمة الحق .

www.atharebartar.com

الغـــاية

اذا كانت الغاية من علم النحو صون اللسان عن الخطأ في المقال ، ومن علم المنطق صون الفكر عن الخطأ في الأحكام ، فان الغاية من علم الأخلاق صون الانسان عن الخطايا في سلوكه بحيث يكون مستقيماً في قصده وفعله وغرضه بعيداً عن الهوى والتقليد الأعمى ، وبكلمة فإن الغاية من كل علم ما عدا علم الأخلاق أن نبتعد عن الخطأ في مسائله وقضاياه . أما الغاية من علم الأخلاق فهي ان يوجد مجتمع يسود فيه العدل والأمن والتعاون على صيانة الحياة من الفساد والمظالم ، ومن كل ما يشقيها ويرهقها ، والسير بها الى الأكمل والأفضل .

ومعنى هذا أن علم الأخلاق يتوخى اصلاح الفرد والجماعة بملازمة الصراط المستقيم في السلوك .

مصـــدره

ومصدر علم الأخلاق كتاب الله وسنة نبيه وآله الأطهار والعقل والمشاهدة والفطرة . وبعض الكتّاب يعبر عنها بالجهاز الدقيق الموجود في داخل الإنسان يدرك تلقائياً الكثير مما يصلحه ويسعده ولا يُشقيه ويفسده كحبه للحرية والمساواة وكراهيته للعبودية والمحاباة ، ورغبته في كل ما يوفر له الحياة الفضلى ويجعله شيئاً مذكوراً . وبعض المؤلفين يسمي هذا الجهاز بقانون القلب الذي يدرك الشيء تلقائياً . في مقابل قانون العقل الذي ينتقل من مجهول الى معلوم ، من شاهد الى غائب .

بين علم الطبيعة وعلم الأخلاق

قطب الرحى في علم الطبيعة الكشف عن أسرارها وعناصرها كما

www.atharebartar.com